مجلة المرابط

العدد : ١٩٤ الموافق في جمادى الثانية ١٤١٨ هجري ١٩٩٧/١١ ميلادي

عنوان المقال : مدخل إلى الخطاب الإسلامي في الغرب	بقلم : متولي موسى

١ـ الخطاب لغة واستعمالاته في القرآن والسنة

ترجع لفظة الخطاب في اللغة العربية إلى مادة : خطب.

تقول : خطب الناس وفيهم وعليهم خطابةً وخُطبة ، أي : ألقى عليهم خطبة.

وتقول : خاطبه مخاطبةً وخطاباً أي : حادثه وكلمه أو وجه إليه كلاماً.

ويقال : خاطبه في الأمر أي : حدثه بشأنه.

وفصل الخطاب : ما ينفصل به الأمر من الكلام ، أو الحكم بالدليل والبرهان ، أو الفقه في القضاء ، أو الفصل بين الحق والباطل ، أو هو خطاب بغير إسهاب ممل أو اختصار مخل.

والخطاب المفتوح : رسالة موجهة إلى بعض أولي الأمر علانية.

والذي يتتبع استعمالات مادة (خطب) في القرآن والسنة يتبين له أن المعاني الشرعية تتفق مع المعاني اللغوية ، ومن ذلك على سبيل المثال :

❊ قال تعالى : { **واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون** }[هود:٣٧] ومعنى لا تخاطبني ، أي : لا تسألني لهم صرف العذاب ، ولا تشفع لهم في تخفيفه عليهم ، وقيل : لا تراجعني فيهم.

❊ وقال عز وجل : { **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً** }[الفرقان:٦٣] ، وقيل في معنى خاطبهم الجاهلون : أي كلمهم السفهاء بما يكرهون من القول.

❊ نقل الله تعالى لنا خطاب أحد المتخاصمين عند داود عليه السلام إذ قال : { **إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب** }[ص:٢٣] ، ورد في تفسير { **وعزني في الخطاب** }: غلبني في الكلام والجدال فأخذها مني.

❊ وقال تعالى شأنه:{ **رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا** }[النبأ:٣٧] ، وخطاباً هنا بمعنى : كلاماً.

❊ وقال عز وجل : { **وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب** }[ص:٢٠].

قيل في معنى فصل الخطاب : الفقه في القضاء ، والبينة على المدعي واليمين على من أنكر ،

وتمييز الحق من الباطل ، والكلام الملخص الذي ينبه المخاطب على المرام من غير التباس.

❋ ورد في صحيح البخاري في " كتاب الجمعة " عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت ، والإمام يخطب ، فقد لغوت » ويخطب هنا بمعنى يتكلم ، فقد ورد في نفس الكتاب عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « يُنصت إذا تكلم الإمام ».

الخلاصة : مما ذكر يتبين أن الخطاب يعني : الكلام ومراجعته ومقابلته والفصل فيه ، ويعني رسالة من مخاطِب إلى مُخاطَب مباشرة أو عن طريق واسطة.

❋ ❋ ❋

٢- ماذا يقصد بالخطاب الإسلامي في الغرب ؟

للإجابة على هذا السؤال لا بد من معرفة مضمون الخطاب الإسلامي وتحديد مرجعيته وطريقته في المخاطبة ، وتعيين المخاطِب والمخاطَب ، وأخيراً إدراك أهداف وأسباب الخطاب الإسلامي في الغرب.

أ- مضمون الخطاب الإسلامي وتحديد مرجعيته : بدراسة خطاب القدوة ﷺ المبعوث رحمة للعالمين نجد أنه ﷺ شرع يخاطب الناس بالوحي ، ويعرض عليهم الإسلام بوصفه الدين الذي ارتضاه الله تعالى للناس ولا يقبل منهم سواه ، وكان القرآن - الذي نزل منجماً - يبين العقائد الصحيحة والباطلة ، والأعمال المقبولة وغير المقبولة ، بحيث كانت مباني الخطاب على مضامين :

١- التوحيد المطلق وعبادة الله تعالى وحده بما شرع.

٢- التحقق بتقوى الله تعالى في الأعمال والسلوك والأخلاق والنظر من وراء الدنيا إلى الآخرة.

٣- الأمر بتزكية النفس وتطهيرها بلزوم تعاليم الإسلام وقيمه.

٤- الأمر بإقامة كيان الجماعة المسلمة وحفظه بوصفه جسداً واحداً ، يتعاون كل عضو فيه مع الآخرين على البر والتقوى ، ويتضامنون جميعاً على نصرة المظلوم ، وإعطاء المحروم ، وتقوية الضعيف.

٥- الإرشاد إلى حقيقة الاخلاف في الأرض وعمارتها ، وإشاعة الخير ومطاردة الشر فيها.

وقد كان الناس يرجعون إلى رسول الله ﷺ عند التنازع ، فيحكم بينهم ويبين بهم الحق ، سواء كان الأمر يتعلق بما نزل من الوحي أو يتعلق بقضايا لم ينزل بشأنها قرآن ، وقد وردت الآيات العديدة التي تعالج ذلك ، ويكفي أن يراجع المسلم آيات سورة المجادلة والآيات التي ورد فيها { **يسألونك** } أو يراجع أسباب النزول ... الخ.

وبموت النبي ﷺ أصبح واقع المسلمين المطبقين للشريعة واقعاً تحكمه السنن والضوابط الشرعية ، ومن سنن الله تعالى في خلقه أن تتفاوت الأنظار ، وتتعدد الرؤى ، وأن تتداخل الأهواء وتتعارض المصالح ، وأن ينشأ من ذلك كله " تدافع فكري واجتماعي " ، وكل ذلك لا يستثنى منه المسلمون ولا يعفون من نتائجه...

ولا بد للترجيح بين الآراء المختلفة والتفسيرات المتعددة من " إطار مرجعي" يستند إليه ويستمد منه ، وإلا اختلطت الأمور واستوى الدليل اليقيني من الظن والتخمين ، واكتسبت الآراء الشاذة المعوجة " شرعية " لا تستحقها حين توضع جنباً إلى جنب مع الآراء التي يسندها منهج علمي محدد في الاستدلال من الأصول ، بدعوى أن هذا رأي وذاك رأي... { **قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون** }.

ومن رحمة الله بعباده أن حدد لهم المرجعية فقال عز وجل : { **فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر** } [النساء:٥٩] ، وقال سبحانه : { **ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم** } [النساء:٨٣].

ب- المغالبة في الخطاب الإسلامي :

المسلم الذي يصدر عن الإسلام محب للآخرين ويشعر برابطة الأخوة الإنسانية لأنه يدرك معنى قول الله تعالى { **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً** }[النساء:١] ، وقوله تعالى : { **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا** }[الحجرات:١٣] ، ولذلك يعتمد في جداله وحواره مع الآخرين الحجة والبرهان ابتغاء الوصول إلى الحق والصواب ، هذا

بخلاف الخطاب غير الإسلامي الذي يقوم أساساً على رفض الآخر أو إنكاره ، وهذا المنهج في الخطاب غير الإسلامي ليس جديداً فقد أرشد العليم بخلقه والخبير بشؤونهم إلى ذلك فقال تعالى :

- { **ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق** } [الكهف:٥٦].

- { **وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** } [البقرة:١١٢].

جـ - تعيين المخاطِب والمخاطب في الغرب :

يمكن تعيين المخاطب والمخاطب في الغرب على النحو الآتي :

١- **المخاطِب** - بكسر الطاء - : هو كل فعالية إسلامية فردية أو جماعية رسمية أو شعبية تتصل بمن يعيش في الغرب مباشرة أو غير مباشرة لتحقيق أهداف محددة وفق مخطط معين ، ولا بد هنا من التذكير بما يلي :

أولا: الفعاليات الإسلامية التي تشتد الحاجة إليها هي : الفعاليات التي تسعى لخدمة الإسلام والمسلمين في الغرب وهي تدرك معنى قول الله تعالى { **كنتم خير أمة أخرجت للناس** }[آل عمران:١١٠] ، وقوله تعالى : { **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** }[آل عمران:١٠٤]. وتدرك معنى قول الرسول ﷺ : « **خير الناس من طال عمره وحسن عمله ، وشر الناس من جال عمره وساء عمله** »[صحيح الجامع الصغير رقم ٣٢٩١] ، وقوله ﷺ : « **خير ما أعطي الناس خلق حسن** » [صحيح الجامع رقم ٣٣١٦] ، وقوله ﷺ : « **خير الناس أنفعهم للناس** » [صحيح الجامع حديث رقم ٣٢٨٤].

أي الفعاليات التي تعيش واقع عصرها ، وتتوصل مع المجتمع الغربي وهي تحمل معها هموم الإسلام والمسلمين ، وتتسع صدور وعقول العاملين فيها لفهم السلبيات التي أحاطت وتحيط بالجاليات المسلمة في الغرب ، وتدرك في ذات الوقت أن تغيير ما بالنفس الإنسانية أمر يحتاج إلى جهد ووقت ، وأن تغيير واقع الجاليات المسلمة في الغرب لا بد أن يكون عن اقتناع وتطلع لغد ومستقبل أفضل ، وأن المخاطب لا يشارك الفعاليات الإسلامية إلا إذا كان الخطاب الإسلامي واضحاً ومفهوماً وواقعياً مقنعاً ، ويكون في ذات الوقت قادراً على المساهمة في حل المشكلات وإزالة العقبات الموجودة في حياة الأفراد

والمجتمع.

ثانياً : اليقين أن فئة واحدة من الفعاليات أو عدداً محدوداً لا يستطيع أن يقوم بعبء الخطاب وحده ، وبالتالي لا بد من التعاون والتنسيق بين الفعاليات المختلفة ، والمسارعة لتقديم الجانب العملي من الأنشطة المؤثرة دون تضييع الوقت في التنظير ووضع المخططات على الورق فقط ، وإن كنت أعتقد - من واقع التجربة - أن الفعاليات الرسمية - أي التابعة للحكومات الإسلامية - قد تحجم عن التعاون والتنسيق مع الآخرين ، كما أن الفعاليات الجادة لا تتسم بوسطية الفهم والتطبيق بعيداً عن الغلو والتسيب.

٢- **المخاطب** : يتمثل في الفئات التالية :

أ- المسلمون الذين نشؤوا في بلدان إسلامية ووفدوا إلى الغرب لأسباب متعددة ، وهؤلاء لهم مواصفاتهم ومشكلاتهم ، وعقلياتهم الخاصة بهم.

ب- المسلمون الذين ولدوا في الغرب سواء من والدين مسلمين ، أو من أب مسلم وأم كتابية ، هؤلاء أيضاً لهم مشكلاتهم وخصائصهم الخاصة بهم ، وإن اشتركوا مع غيرهم في بعض الخصائص والمشكلات.

جـ- المسلمون الذين من أهل البلاد الغربية أو ممن جاؤوا للغرب لفترة قصيرة أو للاستيطان ، وهؤلاء لهم عقليات أخرى وتصورات مختلفة ورؤى متعددة.

ولا يكون الخطاب الإسلامي في الغرب خطاباً فاعلاً ومؤثراً إلا إذا توجه لكل مخاطب بالخطاب الملائم له من ناحية ، والذي يشعر المخاطب من خلاله أن في الاستماع إليه والتفاعل معه فائدة تعود عليه من ناحية أخرى.

❋ ❋ ❋

٣- أهداف الخطاب الإسلامي في الغرب

نجمل هنا أهم الأهداف العامة والتي يمكن لكل فعالية أن نأخذ منها أو تفرع عنها ما تحتاج إليه وفق ظروفها وإمكاناتها :

أ- التعريف بالإسلام والدعوة إليه ، وتذكير الغافلين من المسلمين .

ب- الذب عن الإسلام ضد مطاعن الحاقدين ، وتصحيح الصورة الخاطئة التي تقدمها وسائل

الإعلام في الغرب بكل سبيل مشروع وممكن.

جـ- عرض الصورة الحقيقية الحية عن الإسلام الحق كما أنزله الله تعالى بحكمة وفصل خطاب.

د-الانتقال بالجاليات المسلمة من التفريط إلى الالتزام ، ومن الالتزام الجزئي إلى الالتزام الشامل.

هـ- التعاون على البر والتقوى وتحقيق التضامن بين المسلمين.

❋ ❋ ❋

٤- تحديد المقصود بالخطاب الإسلامي في الغرب

أقصد بالخطاب الإسلامي في الغرب بناء على الكلام السابق : مجموع فعاليات الاتصال الإسلامية في الغرب ، والتي تقوم على الدعوة إلى الله تعالى ، وتبليغ الإسلام ، والذب عنه ، سالكة لتحقيق ذلك كل سبل الاتصال المشروعة مع المسلمين وغير المسلمين ، وفق برامج ومناهج واقعية ، صادرة عن القرآن الكريم والسنة المطهرة.

ومن هذا التعريف يتبين :

١- مضمون الخطاب الإسلامي في أصله موجود في الوحي - القرآن والسنة - فهو مرجع الأحكام ومستندها من جهتين : الأولى : جهة الدلالة على الأحكام العملية في العبادات والمعاملات ، والثانية : الدلالة على القواعد والأصول التي تستند إليها الأحكام الجزئية والفرعية : كالدلالة على أن الإجماع حجة وكذا القياس...

٢- المغالبة في الخطاب الإسلامي تقوم على الحجة والدليل والبرهان ، ونشدان الحق والحكمة ، مع اليقين أن من الحكمة ما هو غير النبوة ، فقد نقل لنا الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « ضمني النبي ﷺ إلى صدره وقال : اللهم علمه الحكمة » ثم قال البخاري : « والحكمة الإصابة في غير النبوة ». وقال ابن حجر العسقلاني في الفتح : « واختلف في المراد بالحكمة هنا فقيل : الإصابة في القول ، وقيل : الفهم عن الله ، وقيل : ما يشهد العقل بصحته ، وقيل : نور يفرق به بين الإلهام والوسواس ، وقيل : سرعة الجواب بالصواب ، وقيل غير ذلك » [فتح الباري شرح صحيح البخاري ج٧ ص ١٠٠].

٣- التعددية في الخطاب واجبة ، حتى يمكن الاتصال بالفئات المختلفة والعقليات المتفاوتة ، وذلك يتطلب برامج متعددة ونوعيات ملائمة من الفعاليات على مستوى الأفراد والمؤسسات.